

الحدثاء والنحو العربى

د/ عبد الناصر بوعلى (ج تلمسان)

1 - مقدمة:

قبل الوصول إلى الحديث عن الحدثاء والنحو العربى التى أملتها على طبيعة المقالة أود أن أشير إلى أن التراث النحوى هو ذلك الإرث اللغوى الذى وصلنا عن الأولين، والتراث والميراث كلمتان لا تفرق بينهما المعاجم تفرقاً متميزاً والمقصود من معناهما ما خلفه السلف من آثار علمية وأدبية نفيسة، ويأتى النحو فى مقدمة هذه الآثار، فقد إهتم العلماء العرب باللغة العربىة إهتماماً بالغاً، واجتهدوا فى خدمتها إجتهداداً لا نظير له، فبذلوا جهداً فى التقييد لتراكيبها وأحوالها، فكان نتاج مجهوداتهم تراثاً لغوياً كبيراً ومتنوعاً، قلما نجده عند أمة أخرى وازداد هذا الإهتمام فى عصرنا الحالى بفعل عملية إعادة قراءة هذا التراث قراءة معاصرة، فبرزت حركة لغوية قادها جيل من رواد علم اللغة الحديث درسوا واحتكوا بالمدارس الغربىة، وقدموا محاولات تهدف إلى الإحياء والتجديد والإصلاح والتيسير، وقد نتج عن هذه الرؤى وهذه القراءات المختلفة التى سادت البحث اللغوى العربى فى بداياته اثر فى انقسام الدارسين العرب إلى فريقين:

* فريق أول تشبث بالتراث وتأثر بالفكر اللغوى العربى القديم، وإعتبر أن ما أتى به الأجداد تاماً وكاملاً لا يقبل النقد وليس له بديل وأن الخير كل الخير فى القديم، وهذا التراث هو ما جاء فى القرون الأربعة الهجرىة الأولى



فقط، حيث بلغ الفكر اللغوي قِمَّتَه، وقد أضاء هذا التراث الحضارة العربية الإسلامية، ومنه استمدت اللغة العربية مجدها وقوتها. ورفض أنصار هذا الفريق دعوات التجديد.

* وفريق آخر حكم على هذا التراث بالعقم والجمود وعدم صلاحيته لعصرنا، وأن كل رجوع إليه من أجل الاستفادة منه وتطبيقه في حياتنا هو ضرب من الجنون، فلا بد من قطع الصلة به، والتوجه نحو إبداع جديد واجتهاد معاصر مثمر في ظل الأفكار الجديدة، يرى أنصار هذا الفريق أن للقدامى لغتهم ووضعهم الخاص وأن للمعاصرين حياتهم ولغتهم التي تختلف عن القديم.

* وبمقابل هذين الفريقين نشأت طائفة ثالثة تحت شعار: الأصالة والمعاصرة، ترى أن التراث غني ومفيد جدا، ولكن ليس في جميع جوانبه وبالتالي فهو يحتاج إلى نظرة فاحصة وقراءة معاصرة بهدف تبيان نقاط القوة التي ينبغي أن تتبع وتشجع، ونقاط الضعف التي ينبغي أن تتجنب وأن كل تجديد لهذا التراث إنما هو باعث للطاقت الجديدة، وتعترف هذه الطائفة بأن التراث غني ولا تنجح إنطلاقة الأمة العلمية إلا بالإعتماد عليه. فالتراث يمثل الماضي والحاضر.

2 - تقويم التراث النحوي:

يمثل النحو العربي التراث اللغوي الأعز للأمة وعليه قام عمود اللغة العربية، فقد نشأ بفعل عوامل متعددة تصدّرها عامل اللّحن الذي تفضى في الألسن بسبب توسع الرقعة الجغرافية العربية، نتيجة المدّ الإسلامي شرقا وغربا، وانضمام العنصر العجمي غير الناطق بالعربية إلى الحضارة العربية الإسلامية، واختلاطهم بالعرب، الأمر الذي أدى إلى





فساد السليقة وبروز متاعب لغوية في فهم القرآن الكريم، وقراءته وتذوق معانيه، فكان لزاماً أن تفرز الأمة من يتصدى لهذا الانحراف الذي وسمه الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة بالضلالة. وقد كان لأبي الأسود الدؤلي (ت 69 هـ) فضل السبق في التصدي لهذا الفساد الذي داخل أسرته فقد نطقت ابنته التعجب في قالب السؤال، فلما أجابها أبوها استغربت الجواب فصحح لها الوضع مركزاً على العلامة الاعرابية.¹

يكاد المؤرخون يجمعون على أن مصطلح النحو هو لأبي الأسود بإشارة من الإمام علي كرم الله وجهه الذي أضاف على مقترح أبي الأسود أبواباً قائلاً له: أنح هذا النحو.

وتوالى الجهود وتعددت إلى عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 179 هـ) الذي حدد محاور النحو العربي وأقام عموده بالبصرة، وجلس للتدريس، فكان أن نبغ من تلامذته سيبويه (ت 181 هـ) فحمل من بعده راية النحو وتزعم مدرسة البصرة وألّف الكتاب الذي لقب بقرآن النحو، وطلبه الناس في أصقاع الأرض.

ومع الكتاب وبالكتاب تبدأ قصة النحو العربي الحقيقية فقد اتخذ سيبويه كلام العرب مدونة وقام باستنباط قواعد اللغة العربية مدعماً كل قاعدة بشواهد من كلام العرب، وكان الهدف من وراء هذا الاجتهاد هو الحفاظ على اللغة العربية والارتقاء بالفصحى من أجل فهم القرآن الكريم والنتاج الفكري والأدبي العربي، وقد كان سيبويه صاحب فكر رياضي يمعن العقل ويعتمد على التحليل والقياس في قضايا الاستنباط لذلك يمكن القول إن النحو العربي نشأ في مناخ عقلي عام استمد منه أصول منهجه.





3 - المحطات المضيئة في النحو العربي القديم:

إن الدارس لتاريخ النحو العربي ولمضمونه ومنهجه حين يستعرض مؤلفاته وكتبه وما بلغته من التعدد والتنوع ويحلل ما أثرعن الكتاب ينتهي إلى إدراك حقائق إيجابية تعد مفخرة للحضارة العربية الإسلامية يمكن أن نجملها فيما يأتي:

أ - إن النحو العربي، عربي المنبت درسًا ومنهجًا، ويعد العمود الأساس والمظهر المضيء في الحضارة العربية، وإن ما يقال بأن النحو العربي وليد اجتهادات غريبة هو إجحاف في حق العلماء العرب فلا يمكن أن ننفي التلاقح الحضاري والتبادل المنهجي، ولكن الدارس لنصوص كتاب سيبويه ولمراحل نشأة النحو العربي وتطوره، لا تقدم له دراسته شيئاً مادياً مؤكداً عن اتصال النحاة الأوائل بنحاة الأمم المجاورة، فالخليل أخذ نصف علمه من البوادي واستنبط علل النحو من عندياته، ولم يسبقه أحد، أليس هو القائل: « فإن سنحت لغيري علة لما عللته من النحو هي أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها »³.

وقد قال إبراهيم السامرائي: «نحن لا ننكر أن يكون اتصال العرب بالفكر اليوناني وهذا الاتصال قد بدا أثره في شيء يسير من علم الكلام وفي كثير مما صنفه المسلمون في الفلسفة الإسلامية، غير أن التراث اللغوي النحوي كان بمنأى عن كل هذا»⁴.

ب - إن النحو العربي مدّ الأمة بقوة معنوية كبيرة وثقة عالية في النفس وحفظ اللغة من الضياع والاندثار، وقد أعطى دفعا للدراسات الفقهية والفلسفية والتاريخية، ومكن العربية من إستيعاب علوم الأمم الأخرى عن طريق الترجمة والنقل، ونقل العربية الفصحى إلى الشعوب





غير الناطقة بالعربية، وأوصلها إلى الأجيال اللاحقة وقد حدد ابن جني ذلك بقوله: « النحو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع، والتحقيق، والتكسير، والإضافة، والنسب، والتركيب وفي ذلك ليلحق من ليس من أهل اللّغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها ردّ به إليها»⁵.

ت - إعتد العمل النحوي العربي على منهج خاص في جمع اللّغة، ورغم أن هذا الجمع كان مقيداً بحدود خاصة، لكنه في حدوده هذه كان اتصالاً مباشراً بالإستعمال اللّغوي وكتب تراجم النحاة تذكر رحلات هؤلاء إلى البوادي لجمع اللغة وتبرز حرصهم في تحري الفصاحة، والجميع يذكر «أن الكسائي خرج إلى الصحراء وأنفذ خمس عشرة قتيّنة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه»⁶.

4 - النقائص المشخّصة في النحو العربي القديم:

مما يؤاخذ به النحو العربي من نقائص توقف عندها الدارسون المحدثون نذكر:

1 - يرى العديد من الباحثين أن النحو العربي لم يقعد للعربية التي كان يتحدثها حاملوها والسائدة بينهم، وإنّما قعدّ لعربية مخصوصة تتمثل في مستوى معين، كان أصحابها يتوخون فهم النص القرآني الكريم.

2 - حصر النحو العربي اللّغة التي قعدّ لها في بيئة وزمان محددين فهو لم يسمح بالتقعيد إلا على اللّغة المستعملة في الحجاز وتهامة ونجد، ومن قبائل مخصوصة (قيس - تميم - أسد - هذيل - بعض كنانة - بعض الطائيين) وهمشت لغة الحضرة ولغة عرب التخوم وتم تحديد عصر الاستشهاد بآخر عصر بني أمية ولم يؤخذ من لغة العصر العباسي،



ومعنى ذلك أن هذا النحو لم يكن شاملاً ولم يمس لغة العرب كلها، ولعل هذا ما جعل الوصفين يرون «أن هذا الأصل من أصول النحو العربي لا يمثل العربية بكاملها، وإنما يمثل جانباً واحداً منها فهو لا يصور إلا هذه العربية التي حددوها مكاناً وزماناً»⁷.

3 - لم يُعرّف النحو القديم حدود الوظائف النحوية، فكتاب سيبويه يكاد يخلو من التعريف على وجه العموم، فهو لم يعرف الفاعل ولا المفعول به، ولا التمييز، ولا البدل، ولا الحال، ويكتفي غالباً بذكر الباب كقوله: هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعوله، ثم يذهب مباشرة إلى تقديم الأمثلة فيقول: وذلك قولك ضرب عبد الله زيداً فعبد الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب⁸.

4 - يرى البعض أن النحو العربي تأثر بالمنطق الأرسطي، وقد صار هذا التأثير طاعياً في القرون المتأخرة، وأدى ذلك إلى أن يكون النحو العربي صورياً، وليس واقعياً ومن ثم اهتم بالتعليل والتقدير والتأويل، ولم يركز درسه على الاستعمال اللغوي كما هو⁹، ونشير هنا بأن المستشرق الإنجليزي كارتر رفض أن يكون النحو العربي قد تأثر بالنحو اليوناني مشيراً إلى أقسام الكلمة لدى سيبويه في حين كان للنحو اليوناني ثمانية أقسام¹⁰.

5 - إن النحو العربي القديم لم يميز حدوداً واضحة لمستويات التحليل اللغوي، وإنما اختلطت فيه هذه المستويات فقد جمعت الكتب القديمة المستويات الصوتية والصرفية إلى النحوية.

6 - قيّم النحو العربي القديم اللغة على أساس معياري جمالي فهذا استعمال عالٍ وذاك متوسط والآخر قبيح، ثم إنّه حكم على بعض الإستعمالات المحدودة بالشاذ الذي يعرف ولا يقاس عليه.



7 - إهتم النحو العربي القديم بمعرفة العلة، والسؤال الذي إنشغل به النحاة دائماً هو: لماذا كان هذا هكذا؟ ولماذا لم يكن غير ذلك؟.

8 - دعوات التجديد والتيسير المعاصرة:

يستعمل المختصون في قضايا النحو العربي الحديث مصطلحات متعددة بغية عصرنته مثل الإحياء، والتجديد، والانبعاث، والتيسير، وإن هذه المصطلحات تحمل في عمقها متضادات. فالإحياء يقابل الموت والنحو العربي لم يمت، ويقابل التجديد البلي والنحو العربي لم يبيل حتى يجدد، ويقابل التيسير الصعوبة فالنحو لم يكن صعباً حتى ييسر، وإنما النحو يحتاج في نظرنا إلى النهوض به تحت مفهوم التحديث؛ فالحدثاء مست مجالات عديدة من مناحي الحياة ومست العديد من العلوم والمفاهيم، وبقي النحو في برجه العالي تهابه العقول وتتخطاه الأقلام، وهذا بسبب عمقه وتعدد تصانيفه، وقد غفل عنه أبنائه حتى بدأ المستشرقون في تحقيقه وأخرجوه من دياجير الظلمة، فظهرت بوادر الإحياء والتيسير على يد مجموعة من العلماء الكبار في أربعينيات القرن الماضي بالشرق العربي، من بينها ما قام به شوقي ضيف بما أسداه من آراء في تجديد النحو العربي، ودعوات إبراهيم مصطفى الذي دعا إلى ضرورة إعادة النظر في بعض المواضيع بصياغة جديدة فيقول: «أطمع أن أغير منهج البحث النحوي للغة العربية، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو وأبدلهم منه أصولاً سهلة يسيرة تقرهم من العربية»، ومجهودات الأستاذ على الجارم في محاولاته تقديم النحو العربي في كتب ميسرة تحت عنوان "النحو الواضح"¹¹.

وأما الأستاذ محمد صاري فقد حصر قضية التيسير في الطريقة التي يعرض بها النحو على المتعلمين، فلغتنا العربية غير مخدمة تربوياً وطرائق





تدريسها متخلّفة جدًّا¹²، ويواصل الأستاذ صاري موضحاً معنى التيسير قائلاً: «إن التيسير لا يعني إستبدال مصطلح مبهم بآخر جلي وواضح، أو بتعويض تعريف معقد بآخر سهل مبسط أو بإعداد مقررات مختصرة عوضاً عن المقررات الطويلة المكثفة، أو بحذف أجزاء من النحو والإبقاء على أجزاء أخرى وإنما التيسير هو انتقاء علمي للمادة النحوية وعرض جديد لموضوعات النحو»¹³.

9 - علاقة النحو العربي باللّسانيات:

المقصود بالنحو العربي نظام اللّغة العربية، فقولنا النحو العربي أو النحو الفرنسي أو النحو العبري فالمراد هو الجانب العلمي الذي يدرس النظام الداخلي لهاته اللّغة أو تلك، ونقطة الالتقاء بين النحو بهذا المفهوم واللّسان هو مستوى النظام، ومن ثمّ فاللّسانيات يمكن أن تسهم في تطوير قضايا النحو وتحديثها.

وإن النظر إلى اللّسانيات على أنها علم غريب على اللّغة العربية وأنها ترتبط أساساً بالمفاهيم الغربية ينم عن نظرة خاطئة وجهل لدى المتلقي العربي.

إن اللّسانيات علم إنساني وهي ملك للحضارة الإنسانية ولا يهم إن كانت قد ولدت ونشأت في الثقافة الغربية شأنها شأن الفلسفة التي انطلقت من اليونان، وحاولت بعض المفاهيم الدينية مقاومتها في العصور الغابرة، "إن اللّسانيات نظرية غربية ولكن منطلقها الفلسفي وهدفها النفعي البراغماتي لا ينتميان إلى الغرب، وإنما هما ملك حضارة الإنسان المعاصر الخارج عن نطاق الجنس والهوية والعرق"¹⁴.

وهنا بات من الواجب التساؤل هل يمكن الاستفادة مما أفرزته الدراسات اللّسانية من أجل تطوير النحو العربي وتحديثه؟ وهل





طبيعة اللّغة العربية تتعارض ومبادئ اللّسانيات؟ العديد من الدارسين ينطلقون من معتقد مفاده أن أي انفتاح على الدرس اللّساني المعاصر لا يفيد النحو العربي في شيء، وأن النحو العربي نضج حتى احترق كما يقال.

وإن مكانة اللّغة العربية في الثقافة الإسلامية عالية جدا فهي تستمد قوتها من اعتبارات دينية وقومية وحضارية، إلا أن هذا التقديس مبالغ فيه، فالعربية لغة كسائر اللّغات البشرية تشترك معها في العديد من الخواص وتنفرد ببعض المميزات التي تجعلها تختلف كما تختلف كل لغة عن الأخرى، «إن التعارض القائم بين مبادئ النحو ومبادئ اللّسانيات ناتج عن الخلط بين المفاهيم التراثية والمفاهيم اللّسانية، والواقع أن النحو واللّسانيات ليسا ضدّين بالمعنى المبدئي للتضاد، كيف والنحو نفسه منذ القديم مفهوم مزدوج إذ هو يعني في نفس الوقت جملة النواميس الخفية المحركة للظاهرة اللّغوية كما يعني عملية تفسير الإنسان لنظام اللّغة بمعطيات المنطق من العلل والأسباب والقرائن»¹⁵.

10 - فوائد اللّسانيات للنحو العربي:

- تقدم اللّسانيات فوائد يمكن أن يستفيد منها النحو العربي نذكر منها:
- ترسم المبادئ العامة التي تقوم عليها البنيات الذهنية للغات.
- تقدّم المناهج والنظريات التي تعمق فهم النحو العربي وتربطه بالحدائث.
- تساعد على الفهم المعق والدقيق والشامل للّغة.
- تعالج اللّغة وفق رؤية علمية وتفرق بين الدراسة التاريخية والدراسة الآنية.
- تمكّن النحو العربي من الإستعانة بالعديد من العلوم الأخرى: علم النفس، والرياضيات، والفلسفة، والنقد...





- تقرر اللسانيات الحقائق اللغوية حسبما تدل عليها الملاحظة دون محاولة تفسيرها بتصورات غير لغوية.

- تدعو إلى تناول المنطوق اللغوي على مستوى واحد من البحث.

الخلاصة:

هذه وقفة نسجلها في قضية النحو العربي لمواجهة العصر والتغيرات التي جدّت في عربيتنا الحديثة، والمتمثلة في ظهور الكثير من الألفاظ الجديدة والتعابير والأساليب الخطابية المتنوعة وداخلتها مناهج حديثة وعصرية، وبقي في معاجمها القديمة طائفة كبيرة من الكلم الذي تجاوزه العصر فأصبح مادة تاريخية نواجهها في النصوص القديمة، مع العلم أن النحو الذي يعالج لغة المحدثين مازال بشكله القديم، وقد رأيت أن أستغل منبر هذه المجلة المحبوبة لدى جمهور الباحثين في قضايا اللغة العربية لأوجه دعوة من أجل تبني إجتهد لوضع نحو حديث للعربية التي تقدم إلى السادة المتعلمين في المراحل الدراسية العامة (الابتدائي والمتوسط والثانوي)، وهذا لا يعني التنكر للنحو كما ورثناه وإنما يبقى ذلك مادة للدارسين في المراحل المتقدمة من الدراسة لفهم النص العربي القديم.





هوامش البحث:

- 1 - علي أبو المكارم، تعليم النحو العربي، مؤسسة المختار، القاهرة، ص 29.
- 2 - نفسه، ص 31.
- 3 - إبراهيم السامرائي، النحو العربي في مواجهة العصر، ص 29.
- 4 - منصور بلقاسم، الآراء النحوية في كتاب اللغة العربية معناها ومبناها، ص 34.
- 5 - أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، 1/34.
- 6 - الأنباري، نزهة الألباء، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة، مصر، ص 25.
- 7 - إبراهيم السامرائي، النحو العربي في مواجهة العصر، ص 27.
- 8 - سيبويه، الكتاب، 2/51.
- 9 - إبراهيم السامرائي، النحو العربي في مواجهة العصر، ص 25.
- 10 - صالح بلعيد، محاضرات في قضايا اللغة، ص 57.
- 11 - إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، دار الأوقاف، القاهرة، ص 03.
- 12 - محمد صاري، تيسير النحو موضة أم ضرورة، ص 203.
- 13 - نفسه، ص 210.
- 14 - مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، ص 39.
- 15 - نفسه، ص 41.

قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم السامرائي، النحو العربي في مواجهة العصر، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1995.
- إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، دار الأوقاف، القاهرة، دت، دط.
- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، دت.
- الأنباري، نزهة الألباء، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة، مصر، ط 1، 1985.





- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، 1998.
- صالح بلعيد، محاضرات في قضايا اللّغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2006.
- علي أبوالمكارم، تعليم النحو العربي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، دت.
- مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980.
- محمد صاري، تيسير النحو موضة أم ضرورة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006.
- منصوري بلقاسم، الآراء النحوية في كتاب اللّغة العربية معناها ومبناها، مخبر التواصل اللّغوي تيزي وزو، الجزائر، 2010.

